محمد بن يوسف السنوسي
(832- 895هـ / 1428- 1490م)
وموقفه من التصوف وصوفية زمانه

بقلم
أ/ جلول بلحاج (*)

ملخص

عاش محمد بن يوسف السنوسي بأرض تلمسان بالغرب الجزائري، في بيئة صلاح وزهد، ونشأ في جو علمي بين أعيان القرن التاسع الهجري، وشهد أحوالا حرجةً من اضطرابات سياسية ومن ثم تحولات اجتماعية هائلة، كما قد تطور التصوف في زمانه من جهة الأفكار والشخصيات، وخصوصا السلوكات إلى أوضاع حرجة تستدعي النقد بالهجوم من جهة الخصوم كما تستدعي النقد بالدفاع والتصحيح من جهة الأنصار. والسنوسي كغيره من الشخصيات الثقافية يومها مطالب بالقيام بدوره كشخصية منتمية إلى التصوف، وهو ما يعرض إليه الباحث بالتوثيق، والتحليل.

الكلمات المفتاحية:

التصوف؛ الجزائر؛ تلمسان؛ المجتمع؛ البدع؛ النقد.

مقدّمة

من المهم معرفة موقف العالم من أي ظاهرة من الظواهر ذات المضمون الديني،

(*) باحث في مرحلة الدكتوراه علوم في اللغة والدراسات القرآنية بجامعة تلمسان . ومفتش التوجيه الديني بمديرية الشؤون الدينية والأوقاف بولاية عين تموشنت . الجزائر
Djelloulogbi46@hotmail.com

تاريخ الإرسال:2019/03/13 تاريخ القبول: 2019/05/21

لأن منطلقه الشرعي في التأسيس للأحكام، وتقرير المفاهيم، والتعقيب على التصورات هو أساس أي موقف ينسب للدين. فإذا أضفنا إلى ذلك كون هذا العالم أو ذلك منتميا إلى الظاهرة محلّ البحث، ومن ثم ملزما بالعمل على تقويمها أصبح من المناسب جدا الوقوف على أشكال التقييم والتصحيح. وإنّ من الظواهر التي رافقت الفكر الإسلامي بل كثيرا ما تخللت تفاصيله، وصبغت كثيرا من رجاله خطَّ التصوف، إذ من ناحية فنية لا يوجد ما يدل على وجود هذا المصطلح وتوابعه في أدبيات الثقافة الإسلامية بالمغرب في القرن الأول ولا الثاني حيث من المرجح أن ذلك كان بالمشرق ثاني قرون الهجرة النبوية السعيدة، غير أن حقيقة التصوف ومقوماته تكون قد صاحبت الفتح الأول للمغرب عموما، مع قرب العهد بالنبوة وجدّة التدين، ونفسيات الفتح المتنامية، ومن ثم وجد التصوف كخط برجاله ومفاهيمه وتآليفه أرضية طيبة، ونفسيات مستعدة... بل إن حياة الاضطراب التي صحبت القرون الأولى من الفتح أتاحت جوا من التصوف بمعناه الانعزالي، وأفكار الزهد، وترك الخوض في أسباب الفتن.

إشكالية البحث: وغرض الباحث هنا أن يرصد موقف بعض مشايخ التصوف ورموزه من تطورات الحياة الصوفية، وسيَر رموز التصوف، وما جد في مفاهيمه من استقرار أو توسع أو غير ذلك، وما أصاب فرقه ورجالَه مع تطاول العهد بالجيل الأول من الادعاء أو الانتقاد. وقد ظهر من ينصر التصوف في هذه المرحلة ولكن بتجديد كيانه، وانتقاد سلبيات السائرين وخط السير. وما جهود أحمد زروق الفاسي (899هـ/1494م)، وهو من المعاصرين للسنوسي في كتابه قواعد التصوف، وعدة المريد الصادق إلا مثال واضح وكافٍ لبيان نمط تلك الخدمة المستمرة والضرورية للتصوف والمتصوفة ولكن من داخل الخط ومن منتم إليه، لا كما فعل المكناسي على ما سيأتي من محاولة نسف خط التصوف بالتركيز على إشهار الأخطاء الجزئية. والمنهج

المتبع هو العرض مع التحليل، فإن تآليف السنوسي موجودة، وسيرته مسجلة، وآراؤه في الجملة محلّ قبول.

أولا . التعريف بمحمد بن يوسف السنوسي التلمساني :

محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب أبو عبد الله السنوسي من كبار علماء تلمسان ومتصوفتها في عصره. نشأ بتلمسان في بيئة صوفية، أخذ عن الحسن أبركان ونصر الزواوي وغيرهما، ألف تلميذه محمد بن عمر الملالي يعرف به كتاب **المواهب القدسية في المناقب السنوسية**. للسنوسي تآليف كثيرة غالبها في العقائد على مذهب الأشعري، صارت مقررات في المعاهد العلمية شرقا وغربا، وله فتاوى في الفقه والتفسير...توفي في تلمسان (895هـ/1490م).

01 – التصوف بالمغرب الإسلامي:

تقدم أن التصوف كمفاهيم سلوكية، وكصبغة لحياة كثير من الأفراد بل للحياة الإجتماعية أمور موجودة منذ البدايات الأولى للفتح، غير أن التصوف بمفهومه الفني ومصطلحاته المقررة قد تأخر ظهوره بالمغرب؛ إذ كانت إلى الثقافة أقرب منها إلى السلوك الاجتماعي. وهو ما يفيده النص التالي: "كان ظهورا متأخرا بالنسبة لبلاد المشرق، وبالنسبة حتى لبلاد إفريقية والأندلس، وذلك على غرار تأخر الظواهر الحضارية الأخرى ثقافية كانت أو سياسية. وقد يكون هذا التأخر فيما يهمنا هنا مرتبطا بتأخر الآثار الكتابية الشاهدة لا بتأخر الظاهرة نفسها. ولقد كانت أحوال الزهد والورع غالبة على أفراد ممن بلغت إلينا أخبارهم من أهل القرون الإسلامية الأربعة الأولى، دون أن يرد بصدد عدد منهم ما يجعلنا نصنفه في عداد المتصوفة الاصطلاحيين، غير أن التميز بدأ في القرنين الخامس والسادس الهجريين."[1].

فالسبق إذن قد كان للمشرق إذ فيه عاشت رموز التصوف، وشاعت أفكارهم

ومصطلحاتهم وقد كانت البصرة بالخصوص المهد الأول لذلك، وبتوالي القرون تمهد هٰهنا بالمغرب عموما الحال لنقل التراث الصوفي تنظيرا وسلوكا. ونشير هنا إلى بيئة الزهد التي كانت هٰهنا بالمغرب وهي المناسبة تماما لظهور التصوف ورموزه وسرعة انتشاره مع السلامة من صراع الفقهاء والصوفية؛ "وقد نشأ التصوف في المغرب مبنيا على الزهد والتقشف والنسك وحمل النفس على المجاهدة في الطاعة والوقوف مع ظواهر الشرع دون تغلغل في علوم المكاشفات والحقائق، لذلك لم يحتدم في المغرب في ذلك العصر صراع بين المتفقهة والمتصوفة كما حدث في الشرق من قبل، لبعد التصوف المغربي عما يخال فظاهر الشريعة من منظور الفقهاء."[2].

كما أشير هنا أيضا إلى حدث بارز في تاريخ التصوف بالمغرب، إذ مثَّل وصول بعض تآليف أهل المشرق من المشهورين بالمغرب، وممن لهم القبول التام فيه، وهو هنا أبو حامد الغزالي ما أثار استنكار كبار الأئمة ووقع انتقادهم الشديد لكتاب الإحياء بالخصوص[3]. ولكن الأمور سرعان ما تمهَّدتْ لصالح هذا الأخير وتآليفه، وصارت آراؤه مرجعا للطريق وسالكيه.

ثانيا ـ محددات موقف السنوسي من التصوف والصوفية:

1- نشأة السنوسي الصوفية: نشأ السنوسي في بيت متدين ذي صبغة صوفية؛ إذ كان جو الصلاح سائدا في بيته ولا شك أن نفس الجو كان متاحا لكثيرين غيره ممن عاصروه، وقد حكى الملاّلي تلميذُه أحوال هذه النشأة فقال عن والد السنوسي: "وهو الشيخ الصالح، المبارك الزاهد، العابد الأستاذ، المحقق المقرئ، الخاشع المقدس المَرْحُومُ: أبو يعقوب يوسف بن عمر بن شعيب السَّنُوسِي..."[4]، ونسب إليه الطريق فقال: "وكانتْ حِرفتُهُ رحمه الله تعالى تعليم القرآن للأَولادِ في المَكتبِ، وله رضي الله عنه كَرَامَاتٌ، وخَوارِقُ عَاداتٍ."[5]. وقال ناسبا لأبيه ولأخته عائشة الكرامة بعد موتها

" فكان أبوها سيدي يوسف رحمه الله تعالى يكثر[من] زيارتها بعد موتها، فربما يأتي إلى قبرها فَيُفْتَحُ له قبرُها فيراهَا وتراهُ وتُكلِّمه، وربما تتشكل له على شكل الطير فيراها على غصن من أغصان تلك الزيتونة التي إزاء قبرها، وهي تطير من غصن إلى غصن."[6]. في هذا الجو نشأ محمد بن يوسف السنوسي، وكان هو نفسُه يحكي هذه الكرامات عن والديه وعن أشياخه على ما حكى الملاّلي.

2- **سند الطريق الصوفي:** حصّل السنوسي سند الطريق، فقد قال الملالي المذكور: "وفي هذه الأيام ألبس الشيخ سيدي إبراهيم الخرقة الشريفة، الطاهرة المطهرة لشيخنا وبركتنا، وعمدتنا ووسيلتنا إلى ربنا، وسيدنا محمد السنوسي رضي الله عنه ونفعنا به..."، كما حصل المصافحة، إذ " صافح أيضا الشيخ سيدي إبراهيم التازي سيدي محمد السنوسي، وشدّ على يده، وقال له: المراد بهذه الشدة؛ الاشتداد في تأكيد الصحبة..." [7]. وجمع الضيافة والسبحة والمشابكة.. [8]، وتم له حضور المولد النبوي بوهران عند إبراهيم التازي (866هـ/ 1460م)، فقد قال السنوسي نفسُه يحكي كرامة لشيخه المذكور نحيل على محلها من المواهب : " ونصه:" كنا عند سيدي إبراهيم مع جماعة من الفقراء الذين جرت عادتهم بزيارته في الموسم النبوي على مشرفه الصلاة والسلام..." [9].

3- أعماله العلمية في التصوف:

أ- تدريس كتب التصوف: درس السنوسي بمسجده خصوصا ما اشتهر من كتب التصوف يومها، ولعلّ لكتاب الإحياء النصيب الأكبر من ذلك فقد كان كتاب العالم الإسلامي شرقا وغربا، وقد انتصف له العلماء بالمغرب الإسلامي بعد الذي جرى قبل قرون من الاختلاف في شرعية المطالعة فيه، حتى وصل الأمر إلى إحراقه كما هو مسطر في كتب التاريخ. وكانت الحكم العطائية قد نالت من العناية الشيء الكثير، وقد

كان درسها سائدا، والاهتمام بها جاريا حفظا وتدريسا وتأليفا، وكتب ابن عطاء الله عامة، وخصوصا كتابه إسقاط التدبير. ومما كان يقوم السنوسي بتدريسه كتاب التشوف، فقد قال الملالي يحكي عن نفسه "وكنت أقرأ عليه كتاب التشوف في رجال التصوف للتادلي، وختمته عليه في ذلك اليوم." [10]. ويحوي التشوف تراجم رجال الصوفية خصوصا بالمغرب.

وإذا كان السنوسي يعتني بتدريس هذا الكتاب الذي لم يكن مشهورا بالمقدار الذي كان لكتب أخرى من الشهرة فلا ريب أن كان يدرس أو يوصي بتدريس غيره من كتب أعلام التصوف كالرسالة للإمام القشيري، وكتب الطبقات الصوفية، وكتب المناقب وقد كان الخوض في فن المناقب سائدا في هذا القرن بالخصوص.

ب- تلقين الذكر والأوراد: ومن عادة المشايخ وصل سند الطريق بمن يصلح له بالطلب أو الحال، ومما يذكر أن السلطان وربما حاشيته وأهله وكان لهم اعتقاد في فقه الشيخ وبركته ودعائه، فحدث أن التمس بعض هؤلاء شيئا من ذلك لأنفسهم أو لأهليهم، ومن ذلك الدعوات التي كتبها الشيخ رضي الله تعالى عنه إلى السلطان أبي عبد الله حفظه الله تعالى بعد أن بعث إلى الشيخ رضي الله تعالى عنه ثانيا، وطلب منه أن يكتب له دعوات يتحصَّن بها من كل سوء؛ فكتب له السنوسي ما نصه: " من ذلك أن يدعو صبيحة كل يوم ومسائه بهذا الدعاء ثلاث مرات: اللّهم أحرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بكنفك الذي لا يرام، وارحمنا يا مولانا بقدرتك، ولا تهلكنا وأنت رجاؤنا، اللّهم إني أستودعك ديني ونفسي وأهلي وولدي، ومالي إنه لا يخيب داعيك يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما."[11]. فغير هؤلاء ممن يحضرون مجالس الشيخ، ويداومون الصلاة خلفه يكون الحرص من جهتهم أكثر على ذلك.

ج- تآليف السنوسي في التصوف: بين أيدينا من وجهة نظر علمية عن تصوف السنوسي مجموعة من التآليف التي تركها من خلال جرد تصانيفه في فن التصوف وهو المقدار الذي تمكنا من الاطلاع عليه، وهي تدل دلالة واضحة على أن السنوسي قد تبنى الخوض في هذا الموضوع على أشكال متعددة منها من جهة التأليف: ما هو اختصار لعمل سابق كرعاية المحاسبي، أو اختصار بغية السالك للساحلي، ومنها ما هو شرح لعمل موجود كأبيات ابن عربي (تطهر بماء الغيب). أو شرحه لأبيات الألبيري.. أو ما بثه خلال تصانيفه من الموضوعات أو الإشارات الصوفية التي بلورت ملامح تصوفه وموقف من التصوف السائد في زمانه.

ولا نعتقد أن عملا للسنوسي يكون قد وصل إلينا ويمثل بجد نظرته إلى التصوف السائد في زمانه كالعمل المتمثل في رده على أبي الحسن المكناسي في شدته دفاعا عن الفقراء والمنتسبين إلى الله كما يسميهم، وطبيعة الموضوعات التي وقع التركيز عليها سواء في الأصل أو في الرد هذا من الجانب النظري. وهي المسائل المعتادة التي يحتاج إليها الفقير السالك من أنواع الأوراد، واتخاذ السبْحات، ولبس المرقعات، والاجتماع على بعض النوافل والأذكار..

وأما ما بين أيدينا من جهة عملية، فهو ما اتفق عليه من عرفَه، وأقروه له من قيام سلوك ونهج حياة ذلك السنوسي على الزهد الصادق في الدنيا، وما اصطبغ به طول عمره من التصوف، تماما على الذي يحكيه المترجمون له على كثرتهم وأشهرهم تلميذه الملالي الذي أفاض بما لا مزيد عليه في شرح صوفية وتصوف شيخه السنوسي. ولنذكر جملة ما اطلعنا عليه من تآليف السنوسي في ذلك:

- اختصار **الرعاية لحقوق الله** المحاسبي.

- اختصار كتاب **بغية السالك** للإمام الساحلي: وكتاب البغية متوفر في أصله.

– **شرح أبيات تطهر بماء الغيب:** وهو عمل مختصر يشبه التعليق على هذه الأبيات المشهورة.

– **شرح أبيات الألبيري.**

– **الوصايا والمواعظ.**

– **شرح أسماء الله الحسنى**: وقد ضمنه هو أيضا لغة ومضمونا صوفيا يدل عليه ما ورد بالمواهب من النقول عن هذا العمل.

– **نصرة الفُقَيّر في الرد على أبي الحسن الصُّغَيّر**: وهو رسالة صغيرة كتبها السنوسي ردا على أبي الحسن المكناسي حين وصلت رسالة الأخير يحمل على كل التصوف ويضع في خانة البدع الشنيعة بل الخارجة عن الإسلام، وهو الأمر الذي اشتد نكير السنوسي بخصوصه. وسيأتي مزيد كلام في هذا الموضوع فلنتركه إلى محله.

د- المعاني الصوفي في تفسير السنوسي: إن توجه السنوسي الصوفي ليس بدعا بين أقرانه وأهل زمانه العلماء منهم وغيرهم؛ ولأجل ذلك لا يفوته خصوصا وهو يفسر أن يستفيد المعانيَ الصوفيةَ من ذلك عن طريق ربط الألفاظ القرآنية بمعانيها الروحية المتضمنة، كقوله مثلا هنا: " وفي ذلك ما يشدُّ عضدَ الإخلاص، وحسن النية المطلوبة في الأعمال سيما عند ابتدائها، فإنه إذا استحضر العبد عند البسملة أن جلائل النعم ودقائقها بيد الرب تبارك وتعالى لم يعامِل بعمَله سواه جل وعلا، ولم يطلب الجزاء عليه إلا منه تبارك وتعالى؛ بل إذا تأمل فوق ذلك عرف أن من رحمته تعالى توفيق عبده الضعيف العاجز للشروع في ذلك العمل؛ إذ لا خالق سواه تبارك وتعالى، فيستحيي العبد عند ذلك أن يذكر نفسه في ذلك العمل فضلا عن غيره من سائر الممكنات؛ فيفنى بذكر مِنَّة الرب تبارك وتعالى في توفيقه لذلك العمل عن طلب الجزاء عليه من المولى جل وعلا فضلا عن غيره."[12]. وهذا القدر توسع في مدلول الظاهر لا مخالفة

فيه، وفيه من النفس الصوفي ما هو ظاهر.

وأيضا عند قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين) بعد ذكر الدين وأنه لله تعالى: "أرشدهم سبحانه هنا بفضله إلى ما يتقربون به إليه وينالون به النجاة والنعيم السرمدي لديه في يوم الدين، وهو التوجه إليه تبارك وتعالى وحده بالعبادة وهي امتثال الأوامر والنواهي على سبيل كمال الذلّ والخضوع. ولما كان العباد مغمورين بالعجز والجهل، وكثرة الملل وغلبة الهوى هدفا لا يحصى من الموانع والقواطع أرشد سبحانه بمحض فضله إلى ما يتحصن به العباد من ذلك وهو الاستعانة به جل وعلا واستمطار الهداية منه تبارك وتعالى"[13]. وهو كلام طيب يوافق مقصود الآية.

وأكتفي هنا بهذا التمثيل المحدود تحت هذا العنصر ومن أراد الاستزادة فليطالعها في محلّها من التفسير.

ثالثا ـ ضبط السنوسي لبعض مفاهيم التصوف:

يتمثل درس التصوف عند السنوسي في تبين مجموعة من العناصر لا تكاد توجد مجموعة في تأليف خاص له رحمه الله تعالى، بل يقتضي الوقوف عليها مجموعةً تتبع مختلف كتبه، ما كان منها في مجاله الخاص من كتابات السنوسي الصوفية أو تضمنته كتبه الكلامية من إشارات، وتقريرات..ومن مجموع ذلك تتبلور نظرته إلى التصوف، ومدى متابعته فيه لأئمته، ومدى إسهاماته في ترسيخ معانيه، وصبغ المجتمع به، حتى كان التصوف مشروعا اجتماعيا بنظر السنوسي.

1- مفهوم الكرامات عند السنوسي:

لا أبحث الكرامة في الفكر الاسلامي من وجهة نظر عقدية، ومكانتها من التصوف وحياة المتصوفة فهو أمر معروف في محاله، وإنما أنقل ههنا نصوصا للسنوسي عن الكرامة من جهة التعريف والاستدلال لها، بل والدفاع عنها، ثم نتعرض لنماذج من

الكرامات التي وقعت للسنوسي أو أحد مشايخه أو المعجب بهم، وخصوصا المعاصرين له. مع تسليم السنوسي للكرامة كحقيقة شرعية، وواقعة مادية بشروطها المعلومة، فإنه لا يتردد في التحفظ من دعواها، وقبولها ممن ادعاها. وإذا كان السنوسي مولعا كما سنرى بحكاية وجمع كرامات مشايخه والصالحين من أهل زمانه، ومن يثق في النقل عنهم؛ فإنه وبنفس الدرجة لا يتردد في نفيها عن أهل الباطل والدعاوى العريضة، ومن لا يستحقون تاجها المكلل، فهو يقول: " ولعله إنما أنكرها من أنكرها منهم؛ لما كثر المدعون لها في أزمنتهم ممن ليس من أهل الولاية، وكثر أهل البدع والدجاجلة والفتانون للجهلة بالحيل والتمويهات أو ما هو من قبيل الابتلاء والاستدراجات، فأرادوا سد بدعتهم وفتنتهم للعوام بحصر الكرامة في اتباع الكتاب والسنة، والسلف الصالح، لا غير ذلك. ولا خفاء أنه من الحسن أن تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور."[14].

ومع أن النص يتكلم عن وجه شرعي من وجوه إنكار الكرامة في أزمنة سابقة ممن أنكرها إلا أن الأمر ينطبق تماما على كل كرامة يدعيها المبطلون، والمفترون على الصوفية والتصوف، وهي في زمانه أولى وأحرى؛ إذ ما من زمان إلا والذي بعده شرّ منه في الجملة كما هو نص الحديث " خير القرون قرني ثم الذين..."[15]، ثم هو من جهة أخرى يقرُّ بأحقية قول من لازم بين دعوى الكرامة، والتزام الكتاب والسنة، واتباع طريق السلف الصالح فهم أهل الكرامة الحقيقية.

وبالجملة فإن الكرامة بنظر السنوسي هي نتاج الالتزام بحدود الشرع، وقد ذكر ذلك عبد الرحمان الأخضري (983هـ/ 1578م) في نظمه النقدي لتصوف أهل زمانه حاكيا المقالة عن القوم بلسانهم وميزانهم:

وقال بعضُ السادة الصوفية مقـــــالةً جليلـة صفيـة

إذا رأيـــتَ رجــلا يطيــرُ   أو فوق ماء البحــر قد يسيرُ
ولم يقف عند حدود الشرع   فإنّــه مستـــدرَجٌ وبدْعــي

وعلى العكس فيما لو وقعت الكرامة من مستكمل للشروط الشرعية، أي من أهلها، فإن السنوسي لا يتسامح مع منكريها؛ ولهذا رأيناه ينتهز فرصة إنكار بعض المعتزلة للكرامة الشرعية ليكيل لهم الذم، وينسبهم إلى الضلال، والإضلال فهو يرد عليهم إنكارهم بقوله: " ولا غرابة في إنكار معظم المعتزلة لها، إذ هم لم يشاهدوا في جماعتهم الضالة المضلة وليا لله تعالى، وإنما الغرابة في إنكار من ينكرها من أهل السنة إن صح عنه ذلك."[16].

وقد اضطر العلماء وخصوصا في الأزمنة المتأخرة إلى الاعتذار عن وقوع الإنكار للكرامة بسبب ما كان يحدث من أخطاء من داخل خط التصوف، تسمى بالمبدأ العام ترك ملازمة الكتاب والسنة، وطريق الأعلام من السلف وأئمة التصوف، وتسمى بالمعنى الخاص زلات شرعية؛ فمن ثَم استعظم الناس وقوع المنكر ممن اشتهر بالسير في الطريق الصوفي: " قال الشيخ محي الدين رحمه الله تعالى ومما يفتح باب قلة الاعتقاد في أولياء الله تعالى وقوع زلة ممن تزيا بهم، وانتسب إلى مثل طريقهم والوقوف مع ذلك من أكبر القواطع عن الله عز وجل."[17].

ومثل هذه الأخطاء والتي يحكي منها الشعراني في الطبقات كما هائلا، لا تجلب فقط للتصوف الإنكار من خارج خط التصوف بل تكون فتنة على السالكين أنفسهم، وتؤدي بالمريدين إلى استيحاش الطريق، وأحيانا الانقطاع عن السير بالمرة. وفي نص للإمام زروق يبين فيه سبب كثرة الإنكار" أولها النظر لكمال طريق الصوفية، فإذا أتت منهم إساءة أسرع الناس في الإنكار عليهم، لأن النظيف يظهر فيه أقل عيب؛ والثاني رقة علومهم ووقع الطعن عليها لأن النفس تسرع لإنكار ما لم يتقدم لها علمه؛

والثالث كثرة المبطلين في الدعاوى والطالبين للأغراض، وذلك بسبب إنكار حال من ظهر منهم بدعوى؛ والرابع خوف الضلال على العامة باتباع الباطن دون الاعتناء بظاهر الشريعة؛ الخامس شحّ النفوس بمراتبها، إذ ظهور حقيقة يبطل أخرى، ومن ثم أولع الناس بالصوفية أكثر من غيرهم، وتسلط عليهم أصحاب المراتب أكثر من سواهم. "[18].

على أن الكرامات مهما تعددت وتنوعت من طي الأرض للولي أو قلب الأعيان أو التواجد في مكانين، أو الإخبار بالغيب؛ فإن رأس الكرامة كما يخبرنا بذلك إمام الشاذلية: اليقين في الله الثابت، والمتابعة للسنة. وذلك ما يورث الكرامة التي تكاد لا تخطئها العين أو يقع بها الالتباس في معرفة الولي على الحقيقة، فقد قال ما نصه: " وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل والاقتداء والمتابعة بمجانبة الدعاوى والمخادعة؛ فمن أعطيهما وجعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفترٍ كذابٌ. "[19].

ويذهب السنوسي إلى أبعد من ذلك إلى لازم الإيمان اليقيني، والمتابعة الصادقة، فلو كان من كرامة الولي أن يكشف له عن الجنة وما فيها، وأعظم بها من كرامة، لم يكن ذلك في جنْب الله ومعرفته، والركون التام إليه بالشيء الكبير. فهو يقول في وضوح " الولي الحقيقي من لو كشف له على الجنة وحُورها ما التفتَ إليها، ولا ركن لغيره تعالى فهذه حقيقة العارف. "[20].

وإذا كانت الكرامة كثيرا ما يكرم الله بها عباده وهم أحياء، يعرفون مواقعها من حياتهم وتصريف أمورهم، ويعاينون عن طريقها لطف الله بهم، كما يمكن أيضا للناس أن يشاهدوا ذلك إلا أنه برأي السنوسي أن " الولي الكبير المقدار عند الله تعالى قد لا تظهر له كرامة في حال حياته، وإنما تظهر له بعد موته. "[21]. فيراها من بعده وقد

يكونون بحاجة إليها؛ لتثبت قلوب أقوام احتاجت إلى التثبيت في حق الشيخ أو في حق غيره..

2- نماذج من الكرامات: الكرامة زيادة على جوازها الشرعي، هي شيء واقعي لا يقبل النفي؛ ولذلك كان السنوسي مغرما بتتبع كرامات من سبقه من العلماء والأولياء وكبار الصالحين شرقا وخصوصا بالمغرب الاسلامي. وكانت عنايته بكرامات شيوخه أشدّ، يحصيها ويبالغ في استغلال المناسبات لنشرها والتعريف بها، وهو أكثر من ذلك يحيطها بهالة من التسليم والتعظيم. وفي كتب التراجم التي اهتمت بشيء من تفاصيل حياة السنوسي ذكر متوسط أو مطول لمدى عنايته بكرامات الأشياخ، ونحن نورد نماذج من ذلك نبغي بها التدليل على ذلك لا الحصر.

ومن تتبع كتاب الملالي في ترجمة شيخه السنوسي يلاحظ من خلال نهجه في معرفة مقام شيخه واللغة التمجيدية المستعملة، مدى ما كان عليه السنوسي مع مشايخه. وقد ذكر ابن مريم في البستان من أحوال وفضائله أحمد بن الحسن الغماري الكثير، والسنوسي معجب بهدي هذا الشيخ وبكراماته، وإن كان لم يتصل بأيدينا ما يدل على أنه أخذ عنه شيئا محددا، أو لازمه قليلا أو كثيرا. من كرامات هذا الولي الصالح ما يحكيه عنه السنوسي بنفسه " وذكر لي بعض من أثق به أنه سمع من بعض الناس أنه كان بتلمسان فيما تقدم من الزمان غلاء شديد تعطلت الصلاة بسببه في كثير من المساجد، قال: فدخلت جامع الحلفاويين فوجدت فيه سيدي أحمد بن الحسن وهو لا يعرفه أحد في ذلك الزمان؛ فقال لي: يا أخي إذا خرجت فاغلق عليَّ ذلك الباب، فإني أريد أن أنام هنا شيئا. قال: فخرجت وأغلقت عليه الباب، وأهمل ذلك المسجد لاشتغال الناس بأمر الجوع. فبقيت مدة طويلة حتى فتح الله تعالى على الناس، فذهبت إلى ذلك المسجد وفتحته فلما دخلته وجدت سيدي أحمد بن الحسن فيه نائما على ما تركته، فاستفاق عند دخولي عليه وظن أنه إنما نام ساعة أو نحوها، فقام

وخرج. فعرفت أن الله سبحانه لطف به وغيبه عن فتنة الجوع ومشاهدة ما أحاط بالناس فيها، كما غيب أهل الكهف وذلك من الخوارق العظام."[22].

وذكرنا هذه النص هنا لبيان لون من ألوان الكرامة كما كانت سائدة في زمان السنوسي بما أن النص ينتمي إلى القرن التاسع، ثم إن ترك التعقيب على مضمونها من جهة السنوسي يدل إلى أي مدى كان تسليمه بمضمون الكرامة، مهما ثبتت عن سيد من سادة الطريق، ولا يمكن فهم هذا التسليم إلى إذا فهمنا إلى أي مدى كان يحدث للتصوف أن يتواجد على هامش الحياة بحيث يصبح رأس مال الولي أو جملة من الأولياء هو عزلة الخلق، وترك الاشتغال بما يصيبهم من الهم الاجتماعي. وهذا وإن لم يكن نمطا واحدا عند سائر الصوفية إلا أنه يمثل وجها من وجوه تأثر وتأثير كبار الصوفية على الحياة سلبا أو إيجابا.

ففي النص أن أحدا لم يكن يعرف الولي الغماري، وأنه كان حريصا على أن يبقيَ حالَه مستورا، رغم مقامه في الصلاح والولاية. ولم يرد في النص ما يدل على سعي الولي الغماري إلى المشاركة في كشف هذا الهمّ بالدعاء، أو التضرع أو الحث على التكافل الاجتماعي حسبما يدل عليه ظاهر الأمر على الأقل، وإن كنا لا نستبعد التضرع ولا الدعاء.

ولكن السنوسي كما تفيده النصوص كان يعكس بمشاركاته الاجتماعية لونا آخر من ألوان الحضور الصوفي في الحياة حياة الأزمات، ففي نص سابق أورده الملالي أن السنوسي كان وخصوصا زمن الغلاء يبادر بالصدقة، ويحث أهله ومن تطاله سلطتُه الروحية على الصدقة ويرغبهم في الجنة، والأمر برد الحقوق.. وذلك يختلف باختلاف استعدادات النفوس، ومدى قدرتها على العطاء الاجتماعي.

المهم أن الولي الغماري -رحمه الله تعالى - لم يكن يدعو الناس إلى مثل موقفه هذا

على الأقل في النص الذي أوردناه، بأن ينكر على غيره أن يسعوا إلى ما يخلصهم مما هم فيه باتباع سائر وجوه الأسباب المفضية إلى ذلك، وقد تعلق الأمر بتعطيل الصلاة في المساجد، وفي ذلك من المحنة ما يجل عن الوصف، غير أن السنوسي في كل ذلك مراع لمقام الصالحين غير مغامر بالإنكار على أحوالهم ما دامت فردية ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: 286].

وأما فيما يخص السنوسي فقد حباه الله من الكرامات ما هو به حقيق، ففضله عنده ومقامه بين يديه سبحانه كبير، ومواهب الله لا يحدها شيء، فقد أورد الملالي أن شيخه السنوسي قد ثبتت له كرامة رؤية الله العظيم في النوم، ولندع التلميذ الحفي يخبرنا بذلك فهو يقول عن شيخه " أنه رأى ربَّ العزة جل جلاله في النوم على ما هو عليه جلّ وعلا ليس كمثله شيء، فمن حين رآه فنِيَ عن الكائنات كلّها ولم يعبأ بشيء منها، ولا مال إليها طبعا ولا تطبعا. "[23].

3- واجب الاهتمام بمقام الولاية والأولياء: يولي السنوسي مقام الولاية تعظيما كبيرا، ولذلك استكثر من الشيوخ الذي اتفق من ترجم لهم على أن كل واحد منهم مستحق لنعت (الولي)، وقد كان لهذا اللون من اختيار الشيوخ عظيم الأثر في حياته؛ بل إن قوة متابعته لهؤلاء الأولياء المشايخ، أهلته بدوره وباستحقاق أن يسلم له من يأتي بعده من العلماء بمقام (الولي الصالح) فضلا عن عامة المؤمنين الذين لم يكونوا يرون فيه غير الولي الكبير، والصالح العابد.. ولذلك كثر ما نسب إليه من جمع وتتبع الأولياء، والاحتفال بمناقبهم حتى ألف في بعضهم تأليف مشهور وهو مناقب الأربعة المتأخرين لابن صعد التلمساني.

وخط الولاية في نظر السنوسي لا يكاد ينقطع فهو من مددُ السماء، ومنّة الرحمان الرحيم، ولكن الستر حجب أكثرهم عن أعين الخلق ولله فيهم شؤون " وقد روي أن

الأولياء مددٌ لا ينقطعون، في كلّ قطر قادة، وفي كلّ مكان سادة. نسأل الله بفضله التصديقَ بهم، وأن لا يحرمنا من بركاتهم في كلّ وقت وحين، وقد ينادى بلسان الخفا بستر خصوصيتهم لتقارب الزمان وضعفه."[24].

وزيادة على اهتمامه الشخصي بهم، فقد نقلت عنه نصوص متكاثرة في الحثّ على تعظيم مقامهم، والحث الأكيد على تسليم الحال لهم وترك الإنكار عليهم بغير وجه شرعي؛ بل هو يوجب على ما سيأتي التأويل في حقهم لما يصدر أو يبلغ عنهم من الأمور المستنكرات في الظاهر.

وهذا الحث على الرعاية لمقام الولاية هو عام من السنوسي في كل الأولياء، وآكد ذلك فيه ما كان في خصوص المعاصرين منهم، هذا واضح في تآليفه، وما نقل الملالي بالخصوص عنه، إضافة إلى ما كان يلقيه في دروسه الخاصة والعامة، و تبجيله لمن عاصرهم من الأولياء، من تقدم منهم أو اللاحق.

وفيما يلي نص في الموضوع نورده ثم نعقب عليه، موجه من السنوسي إلى بعض من يهمه الأمر، يبين فيه السنوسي رؤيته، ويستدل عليه، ويطرحه بإلحاح، وتأكيد شديدين، ولا يبعد أن يكون ردَّ فعل عن موقف صدر أو ظاهرة كادت أن تعمَّ، تتعلق بمدى إهمال أهل المغرب عموما لحقوق الصالحين فيهم، من مضى ومن هو من أهل العصر، يقول مخاطبا من يصله كتابه" وليكن اعتناؤك يا أخي بمن تأخر من الصالحين وخصوصا من أهل بلدك حلولا بالسكنى والدفن أكثر من اعتنائك بمن تقدم منهم وذلك لأوجه... ولقد ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق خصوصا ولاسيما أهل العلم فقل أن تجد منهم من شرح الله صدره للتصديق بولي معين، بل يقول نعم الأولياء موجودون ولكن أين هم فلا يذكر له ولي إلا أخذ يدفع خصوصية الله فيه ، وأطلق اللسان بالاحتجاج عاريا من التصديق فاحذر من هذا وصفه وفر منه فرارك من

الأسد."[25].

ففي هذا النص وبالرجوع إليه كاملا بالستان لابن مريم حثّ مؤكد على مراعاة جناب أولياء الله الصالحين المعاصرين منهم بالخصوص، وإحاطتهم بالتقدير وحفظ حرمتهم، لاسيما إن كانوا من أهل البلد أو محلّ دفنهم بالبلد. وهذا التكريس يهدف السنوسي منه إلى ربط حياة الأفراد الاجتماعية بهذه الرموز الدينية التي من شأن التقدير لها أن يرسخ مفهوم التدين، ويزرع روح الزهد، ويحض النفوس على التأسي ولو بالتعاطف مع هؤلاء ما دام قد اشتهرت ولايتهم، وعمّ خبرُ صلاحهم فيمن " تعلق من الملهوفين بمن لابَسهم أو خدمهم." [26].

وفي هذا زيادة على المعاني الدينية البحتة تخليص طائفة من العاجزين من أسى ما هم فيه، والتأسي بحياة هؤلاء وما نالوه من الرضا، ولم يكن قد نالهم من الدنيا كبيرُ نصيب. ومن المعاني التي هدف إليها هذا الحض المؤكد تنشيط النفس في بلوغ القصد من الطاعة والمسارعة في الخيرات تأسيا بمن عاصروه من السابقين في البر والصلاح، وهو ما أشار إليه " أن نشاط النفوس للخير والاقتداء بذكر محاسن المعاصرين أكثر من نشاطها بذكر محاسن من بعد زمانه؛ لأن منافسة المعاصر لمعاصره في الخير معلومة."[27].

ولا يكتفي بالترغيب المجرد في حمل نفوس أهل الخير على التأسي بمن ذكر؛ بل نراه يتوعد مرهّبا ومحذرا مَن تجاوزَ طورَه وسعى في هلاك نفسه، بالتعرض لمن خصهم الله تعالى بالرضا، وأهَّل نفوسهم إلى الخير، ولو كان على جهة الجهل منه بمقامهم من الولاية، ومكانه من الصلاح " وقد وقع كثير من الناس في بعض من يتعلق بالأولياء وهو جاهل بهم، فهلك والعياذ بالله هلاكا عظيما في دنياه وأخراه."[28].

وقد كان للسنوسي ولترغيبه وترهيبه وقع في نفوس من عرفه أو سمع عنه، يحمله

على الامتثال أو التحفظ على الأقل. وهناك أيضا في هذا النص المبارك توجيه تربوي لكثير من حملة العلم الشرعي والقائمين على أمر الدين من العلماء والمشايخ والقضاة والمفتين.. "تخلصا مما عليه أهل الزمن من القدح بمن عاصرهم من الصالحين أو عاصرهم من بعض ذريتهم والقرابة إليهم، وهذا خلق ذميم جدا، وقد نال أهل المغرب خصوصا أهلَ بلدنا حظا أوفر مما نال غيرهم."[29]

وفي العبارة الأخيرة حمل من السنوسي رحمه الله على من اختار من علماء الشريعة صحبة الظلمة لا يرجع من ذلك، ولم يجعل التهمة مجرد صحبة السلطان بل من يقوم به وصف الظلم سلطانا أو غيره " فيعدل عن الانتساب إليه إلى من هو مشهور عند الظلمة.". ولا ينسى السنوسي في الأخير أن يشيد بأهل المشرق، لما هم عليه من عظيم الاحترام لمشايخهم، والقيام على أمرهم بما فضلوا به على أهل المغرب، بل إن أهل المغرب قد تلبسوا على رأي السنوسي بعكس المطلوب" ويرحم الله المشارقة ما أكثر اعتناءهم بمشايخهم وبالصالحين منهم خصوصا."[30].

ولا أريد أن نأخذ من هذه العبارة أن السنوسي قد كان له اطلاع على أهل المشرق إذ لم يثبت ذلك بوثائق مبينة، ولكننا نعقب عليه بها في كلامه من المبالغة المقصودة، وإلا فإن أهل المشرق لا يقلّون في تضييع حقوق الصالحين عن غيرهم، ولكنهم نسبة إلى المغرب على رأيه أحسنُ حالا، وربما كان ذلك لكثرة التآليف في المناقب، وإقامة المشاهد، وتنظيم المواسم..

وأما سوق الإنكار فلم يخلُ منها مكان وقديما قيل: لكلّ زعمٍ خصمٌ. وتسليم الناس للولي بالرتبة، وما تقتضيه من الحق الواجب له على الناس أمرٌ جرت العادة بصعوبته على النفوس، لندرة الإنصاف من الناس في ذلك، وصعوبة إدراك الناس لمقتضياته فوجب رد نسبة الفضل في ذلك إلى الله، وأن الأمر في الأخير إنما هو فضل

الله تعالى ومواهبه العالية، واختياره لمن يشاء من عباده؛ حتى يندفع بالتالي عن النفوس ما تجده من الأثرة وأسباب الإنكار: " وإنما كان المعترف للأولياء والعلماء – بتخصيص الله تعالى لهم وعنايته بهم، واصطفائه لهم – قليلا في الناس؛ لغلبة الجهل بطريقهم واستيلاء الغفلة و كراهة غالب الناس أن يكون لأحد شرف بمنزلة أو اختصاص حسدا من عند أنفسهم."[31].

4- مبدأ تسليم الحال لفقراء الصوفية: المهم في الفقير أن تنضبط حاله بالشرع الشريف هذا مبدأ لا يختلف فيه أعلام التصوف السني، وقد نقلت وسأزيد في ذلك عن السنوسي ما يفيد اعتباره لهذا القيد، ولا حرج على الفقير أن يقوم به من الحال ما لا يعرفه غيرُه من نفسه؛ ولما كانت الأحوال من مواهب الله تعالى على عباده لا يمنعها عنهم مانع، كان الأولى في نظر السنوسي أن يسلم لأهل الله ما هم فيه من الحال الشرعي، وأن يترك الاعتراض عليهم؛ فقد وصلوا إلى حيث لم يصل غيرهم وعرفوا ما جهل غيرهم، ولذلك لما ردا على أبي الحسن الصغير قال: "اعلم أن الاعتقاد أصل كلّ خير، والانتقاد أصل كل شر. وقد قال أبو مدين رضي الله عنه : اعتقد ولا تنتقد، ولا تطمئن لأحد، وكذا سمعته من بعض السادات. وقال أبو عبد الله المقري رحمه الله [32] " الاعتقاد ولاية، والانتقاد جناية، فإن عرفتَ فاتبعْ، وإن جهلت فسلام."[33] .

وهذه النصوص الحاسمة يتلقاها السنوسي ممن لا يشك في ولايته، وأعلميته بالطريق الصوفي، ويكفي في هذا النقل دليلا له على ما يقول، فقد كان أبو مدين [34] من كبار القوم وكلامه مسلم، وحاله مشهور، ومقتدى به، ثم يضيف:" قلت: مبنى طريق التصوف كلها على التسليم والتصديق، كما أن مبنى الفقه على البحث والتحقيق. فالأصل عندي حسن الظن حتى يتحقق الصادق وتلتمس له معاذر، ومبنى الأمر عند أهل الظاهر على عكسه."[35].

وما ذلك إلا لأن الأحوال غير قابلة للتعليل والتسبيب، فهي مما قد يعجز القائمة به عن التعبير عنها فضلا عن الدفاع عنها، وربما كانت فيمن كان الغالب عليه الصلاح، ولا اطلاع له على فنون البحث والاستدلال؛ فيعجز أو يبهت بالإنكار عليه بغير حق، وقد يكون ما معه من الفضل التام. أما الفقه فمبناه على الدليل لتيسر الأمر وسهولة فهم الدليل وشرح الأمور.

ويعود السنوسي ترغيبا للسامع إلى الترهيب، والتحذير من الاعتراض على الطائفة، واتخاذ عدم الفهم عنهم سبيلا إلى الإنكار عليهم، وإلحاق الأذى بهم " قلتُ: والحذر من هذه الطائفة أهل الاستناد والانتساب إلى الله الراجعين إلى ولايته، لأنه هو الذي يتولى الصالحين أي المنقطعين إليه الذين لا يعولون على غيره، فلم يدعهم إلى سواه، إذْ لم تبقَ فيهم بقية رقّ لغيره."[36].

وليكون السنوسي منسجما مع مبادئه، وما تكتب يمينه، ويدعو الناس إليه يورد هو بنفسه هذه الحكاية عن بعض الأولياء المشهورين من مشايخه، وإن كانت قد حدثت لغيره كما هو ظاهر السياق ثم يعقب على موقف التسليم، فيقول: قال لي سيدي علي: سمعت من سيدي أحمد أنه قال: كانت لرجل حاجة عند الشيخ فطلبني أن أذهب معه إلى الشيخ أشفع في قضائها، فذهبت معه وطلبت منه قضاءها، فنهرني نهرة شديدة وقال لي: الآن حين شفعت في هذه الحاجة لا أقضيها أبدا فطلعت مسرورا بنهرته، ونفعني بذلك نفعا عظيما إذ لو أقبل علي وقضى الحاجة لشغلني الناس كل ساعة بالشفاعة إلى الشيخ في حوائجهم؛ فقد أراحني بتلك النهرة راحة عظيمة ودعا للشيخ بسبب ذلك. فانظر حسن فهمهم عن أولياء الله.."[37].

والعبارة الأخيرة تجسد مدى إخلاص السنوسي لمبدأ التسليم لأولياء الله ما هم فيه من الحال مهما صعب فهمه، وعسر إدراك مراميه، بل مهما صعب احتماله عند حصوله

من طرفهم. وفي إطار التسليم دائما يدعو الإمام السنوسي إلى التماس ما يحفظ مقام الأولياء من التضييع من أنواع التأويل لما قد يصدر منهم أو يبلغ عنهم من الأخبار مهما يكن مستنكرا، بأن ذلك لم يصدر عنهم وهم في حال الحضور مع الناس، وقيام التكليف بل في حال الغَيبة عن الخلق. إن ذلك عند السنوسي من الواجبات الأكيدة ما دام خط حياتهم يضمن لهم الحكم بسلامة المعتقد، وصلاح الحال فيصبح ما يبدر منهم على سبيل الاستثناء مما يحفظ ولا يقاس عليه، ولأجل ذلك فرأيه أنه " يجب حينئذ أن يتأول ما يصدر من هذا الحكم ممن عرف بالولاية بأنه صدر منه ذلك وهو مغلوب.. "[38].

وتسليم السنوسي رحمه الله تعالى للأولياء الصالحين، ودفاعه عن الفقراء المنتسبين إلى الله كما هي عبارته، كل ذلك كان زيادة على تبنيه لهذا الخط جملة وتفصيلا، كان ذلك من الوفاء بالعهود لمشايخه وما قطعوه عليه من الوصية " احترام المشايخ وخدمة الإخوان والتواضع للفقراء، والرأفة بالمؤمنين والشفقة على خلق الله أجمعين. "[39].

5- مبدأ العمل بالعلم: عرف التصوف دخول طوائف كثيرة من الأدعياء، وممن حصل الكشف عن حالهم فإذا هو بخلاف ما يقتضيه الانتساب للطريق، والدخول في ميدان الصوفية، لذلك احتاج الأمر إلى ميزان يوزن به الانتساب، فلم يوجد ميزان أعدل من اتْباع العلم العملَ، والدعوى الاقتداءَ، فهو الميزان الذي لا يطيش. والسنوسي رحمه الله تعالى من أهل هذه الطريقة، فهو لا يكتفي بحثّ عموم المؤمنين والمنتسبين إلى الطريق على العمل بما يحصل لهم من العلم، بل يسعى جاهدا وفي طول كتاباته وعرضها إلى الربط الوثيق الذي لا يقبل نقضا بين العلم النافع والعلم الصالح، بين الشريعة والحقيقة، وهو يوجه بذلك خطابه لطائفة أهل العلم من العلماء والطلبة، ليتمّ غرسُ العلم، ولأجل أن تثمر طريقُه صلاح الحال ظاهرا وباطنا.

ولما كان هذا المقصد عزيزا، لا يتيسر لطالبيه إلا بعد طول السعي، والمبالغة في المراقبة، وشغل العمر بالواجب من المهمات الشرعية، والانتقال عبرها إلى نوافل الخيرات، وطلب درجة الإحسان، كان الواصلون في كل زمان قليلين؛ ومنه يقول إمامنا مقررا ذلك ومنبها إليه " من الغرائب في زماننا هذا أن يوجد عالم جمع له علم الظاهر والباطن على أكمل وجه، بحيث ينتفع به في العلمين، فوجود مثله في غاية الندور، فمن وجده فقد وجد كنزا عظيما دنيا وأخرى، فليشد عليه يده لئلا يضيع عن قرب، فلا يجد مثله شرقا وغربا أبدا."[40].

6- العزلة طلبا للنجاة والصبر على البلايا: يتبين مما تم سوقه في ثنايا هذا البحث أن خط التصوف استمر انتهاجه، وتم تبنيه اجتماعيا، ومن ثم لاحظ العلماء عبر القرون مدى ما تم من نفع في رجوع كثير من شرائح المجتمع نحوه، ولاشك أنه قد حقق حاجة اجتماعية كانت مفقودة، وأَمَّنَ أعدادا من النفوس كانت تعاني ضغوطا من القلق، وألوانا من التيه الاجتماعي؛ ومن ثم لاحظنا السنوسي يطرح من جديد التصوف، ودخول الطريق والالتزام بالحياة الصوفية مشروعا اجتماعيا كان يرى من خلال تطبيقه، والدفاع عنه وبالتالي التمكين له، حلا جماعيا للمعضلة الاجتماعية، واستدراكا لما كانت قد تخلت عنه السياسة من واجب رعاية المشروع الاجتماعي المتكامل.. ولأجل هذا رأينا السنوسي ومن قبل شيخه الولي الصالح الثعالبي يدعو كلّ منهما إلى العزلة كحل اجتماعي، والتقلل بالتالي من متطلبات الدنيا، والاكتفاء بالضروري منها، واختيار ما عند الله على ما عند الناس، ومن غير شك أن التزام الدنيا التي كانت قائمة يومها أو كانت متاحة لهذه الجموع قد كلف الجماعة الإسلامية من الضنك، والشقاء والقلق العام الكثير.

وهذا الحال هو الذي أوجب على العلماء العاملين المسارعة إلى التدخل لصالح حماية الجماعة بما كان في مقدورهم من آليات الاستقرار، ووسائل الاستنقاذ. وقد كان

هذا مصحوبا بالحثّ الدائم على الأهم من الأخلاق الاجتماعية كالصبر، واحتساب الظلم الاجتماعي عند الله تعالى، واستجلاب الفرج من عنده سبحانه. وفي نص للسنوسي ضمنه شرح عقيدته الوسطى، بعد شكوى زمانه، يصرح بالحث على العزلة، والتزام السكوت، وملازمة البيوت " صار فيه المعروف منكرا والمنكر معروفا، وتعذر فيه معرفة الحق لندور أهله، واتسع الخرق فيه جدا على الراقع؛ فلم يبقَ فيه للعاقل إلا التحصن بالسكوت، وملازمة البيوت، والرضا في معاشه بأدنى القوت. "[41].

ولا ينسى السنوسي حتى وهو يشرح مقامات الإحسان أن يضمن ذلك الإشارة إلى عوائق الطريق من الأغيار كالذرية والمال... ويرى أيضا أن التخلية هي تصفية القلب وتخليصه من كل الخواطر الوهمية، وسائر الأسباب التي من شأنها أن تستبعده وتصرفه عن الامتثال للواحد الأحد، كالجاه والمال والنساء والذرية."[42]. وقديما قال الصوفية: الملتفتُ لا يصلُ، والمعنى أن السائر إلى الله الواجب عليه قطعُ العلائق مع الأغيار أي غير الله تعالى؛ فلا يكون له تعلق أصلا بغير ما يوصله إلى مولاه؛ فإن فعل ذلك - ولا يتم له إلى بالعزلة وملازمة الخلوة - وإلا انقطع عن الوصول، وتُرِك وما اختار.

7- **الرد على منكري التصوف**: وهذا شكل آخر من أشكال موقف السنوسي من التصوف وهو المناصرة لخطه ورجاله ورد النقد الزائف لتفاصيله من جهة خصومه. وليس هذا من السنوسي غير منطق يراه مستقيما ما دام الأساس صالحا مستقرا ومستمرا، وإن انتقاد بعض الجزئيات لا مناص منه؛ بل قد يكون مطلوبا وقد رأيناه من جهته في دعوى الكرامة وغيرها، ولكن الشطب على كل ما ينتمي إلى التصوف بل على التصوف نفسه هو ما قام به أبو الحسن الصغير المكناسي وما لم يقبله السنوسي الصوفي التلمساني.

وقبل الشروع في عرض رد السنوسي على أبي الحسن المكناسي المذكور أعرض بعض ما في رسالة المكناسي من الإنكار على مبتدعة الصوفية بغرض توضيح الصورة، فقد قال المكناسي: "وبقيت من آثارهم لعنهم الله شرذمة قليلة معيبة فانتشروا منها في مغربنا هذا في البوادي والحواضر، وفي البوادي أكثر وذلك طريق أحدثها أشرار ليأكلوا بها حطام الدنيا، فجمعوا العوام من الجهال من الذكور والإناث والذين صدورهم فارغة، وعقولهم قاصرة فدخلوا عليهم من جهة الدين، وزعموا عندهم أن التوبة بحلق الرأس وتلقيم اللقم، والبيات والاجتماع عند حلق رأس التائب والوليمة للتوبة والذكر بالمداولة، والتشطح والزعقات واستعمال العبادات والكنفات والتسابيح والتعنقات، والاعتراف بأن سيدهم فلان في ذلك ولا شيخ لهم سواه؛ فيأخذوا في الطواف على الناس فإذا شارفوا على العمران أخذوا في الذكر على المداولة، فتذبح لهم الغنم والبقر، ولهم خدام وبعضهم على خيولهم. ويأخذون من موضع إلى موضع، ومن بلاد إلى بلاد يتوبون الناس، وزعموا أنهم أظهروا الدين بذلك وأحيوه. والقواعد عندهم أن العلماء رضي الله عنهم قطعوا طريق الله وحذروهم منهم فاعتقدوا بغضهم، وعداوتهم فافترقوا بكثرة أشياخهم على طوائف شتى، كل طائفة تجذب إلى شيخها، وتوارثت بذلك المشاحنة والمباغضة بين أشياخ الضلال الملعونين حتى تمنى كل واحد منهم أن يشرب دم الآخر بسبب حطام الدنيا، فباعوا الآخرة بالدنيا فأضلوا من مخلوقات الله كثيرا وأفسدوا بذلك إيمانهم''[43]. وواضح من هذا النص شدة اللهجة على الطريق وأهله وتعميم الانتقاد، والانتقال من انتقاد الأوضاع الخاصة والأخطاء الجزئية إلى إدانة التصوف جملة واحدة، وكيل التهم للطريق وأهله وجعل الأمور في سلة واحدة، واستدعى لأجل ذلك نصوصا للسلف والخلف خطيرة وحاسمة في رد البدع، والحمل على المبتدعة. وأنت عليم بأن البدع المشار إليها كانت بدع عقائد بمحددات معروفة، ولها أتباع يدافعون عنها بعد تبني مضامينها،

وليس التصوف منها قطعا سلفا وخلفا.

لأجل ذلك استعظم السنوسي وغيره طريقتها، ومجانبتها الصواب بل وقوعها في حيز التعدي والانحراف عن الجادة. ولنترك الحديث للسنوسي نفسه، وعلى لسانه: "فلما وقعت بين يدي هذه الأوراق التي اعترض فيها على أهل الطريقة وسماهم مبتدعة، ولم يقيد قوله بشيء، أطلق لسانه إطلاقا كليا، نبذت تأليفه والله وراء ظهري، وبغضت فعله بسره. وكنت قبل أسمع من الطلبة يقولون أبو الحسن هذا يشبه أبا الحسن الصغير شارح المدونة. فكنت افرح بذلك."[44].

وشرع السنوسي في رسالته نصرة الفُقيّر يستعرض نصوص رسالة المكناسي، ويلتزم الرد عليها ويشير أنه لا مانع عند السنوسي ولا عند غيره من انتقاد بعض أو كثير من سلوكات المنتسبين للطريق قديما وحديثا، وقد قدمت للسنوسي شكل انتقاد مشابه، ولكن الخطأ الشنيع هو اتخاذ هذه الأسباب النسبية، والأخطاء الجزئية فرصا لإصدار أحكاما قاسية على كل التصوف؛ فيكون الدليل بذلك أخص من القضية كما يقولون.

ومن دون تطويل نشير إلى شكل واحد أو اثنين من أشكال رد السنوسي على المكناسي، فهو يذكر في الفصل الأول: " وأما إنكاركم على الصوفية وتسميتكم من انتسب إليهم مبتدعة وردكم عليهم بما روي عنه عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة.[45] رواه البخاري ومسلم، وتقولون لهم أفعالكم هذه لم تثبت عنه، عليه الصلاة والسلام وإنما أحدثتموها." [46]. فأول محذور برأي السنوسي هو حشر النصوص في التحذير من البدع في ميدان علم الكلام إلى ساحة التصوف؛ ولذلك من رأي السنوسي أن الأمر يستدعي التفصيل فقد قال: " المحدثات اشترك فيها أهل الظاهر والباطن، وهي أمور بعضها أحدثت في زمان الصحابة واستحسنوها، واستمر العمل بها إلى هلم جرا، وبعضها استحسنها

التابعون وكذلك العلماء العاملون المجتهدون. ألم تسمع يا بليد قول مولانا رسول الله ﷺ: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين". وقال أيضا عليه الصلاة والسلام : "أصحابي كالنجوم بأيهم اهتديتم اقتديتم"[47]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التراويح: " نعم البدعة هذه" [48]؛ فظهر برأي السنوسي أن المحدثات ليست على شكل واحد فضلا أن تكون على درجة واحدة. وأن المحدثات في طريق التصوف الصحيح غير المحدثات المشار إليها في الحديث السابق. والدليل عند السنوسي وجود هذه المحدثات في حياة الأمة في مختلف الميادين. فنص عبارته: " أما محدثات أهل الظاهر، فمن ذلك الاشتغال بعلم النحو، وحفظ غريب الكتب من اللغة، وتأويل أصول الفقه، والكلام في التجريح والتعديل، وتمييز الصحيح من السقيم، والكلام في الصفة والموصوف، والتغلغل في ذلك، والخانات والمدارس والتدريس فيها، والمحاريب في المساجد، وزخرفتها، والحمد لله في أوائل الرسائل، والاستدلال في المسائل، وتزويق المصاحف، والتوسع في اللذائذ من الأكل والشرب والمساكن ولبس الأبدان والطيالس، وتوسيع الأكمام، وتزويق العمائم وتكويرها"[49]. وهو مقدار لا ينكره المكناسي ولا غيره؛ فظهر أن محل النقاش غير متفق عليه، وأنه ليس كل محدث سيئا بالدرجة التي يتكلم عند المكناسي.

ولا يفوت السنوسي أن يلزم المكناسي بإنكار ما سبق، وهو مما اتفقت الأمة على جواز استحداثه، كما ينكر محدثات قام على مشروعيتها أدلة عامة، كطلب الذكر من العبد والمداومة عليها، يقول السنوسي: " هلا أنكرتم هذا كله يا أحمق؟ ورددته كما رددت محدثات أمور أهل الباطن التي توصل إلى الله وتدل عليه، وتجالسهم معه. وهي: الفاتحة أدبار الصلوات، وذكر الله في الجماعة، والتداول به، والإعلان به، وإفراد كل ذلك بوقت من الأوقات، والكلام في دقائق التصوف، والمصافحة في كل وقت، والسبحات والإعلان بذلك. وهي كلها مستندة إلى الأحاديث والآثار...."[50].

ولا يفوته أيضا أن يغلظ له العبارة ما دام تجاوز المكناسي برأي السنوسي حد الأسلوب العلمي، وخرج إلى التهجم بتعميم الأحكام وحمل نصوص قيلت في مجالها الخاص وفي موضوعها المحدد إلى موضوعات بعيدة للمكناسي غرض في إدانتها. وعبارة السنوسي: " فلو كنت عاقلا منور البصيرة لاكتفيت منهم بذكر الله عن أي وجه ذكروا، سواء كانوا صادقين أو مبتدعين"، ويقول في مقام آخر موجها الخطاب للمكناسي دائما: " أو لم تسمع يا بليدُ قوله عليه الصلاة والسلام (البخيل كل البخيل من سمع الصلاة عليَّ ولم يصل)[51]؟ وهل هذه هي البدعة المحرمة المجمع على تحريمها التي تشيطنت فيها، وكنت شبيها بإبليس اللعين حيث أمر بالسجود فأبى؛ لأن الصلاة على رسول الله ﷺ تنزلت في حقنا منزلة السجود لآدم عليه الصلاة والسلام؟ [52].

رابعا ـ نقد سلوكات أدعياء التصوف:

1- **دعوى الكرامة من المخرقين**: رغم أن الكرامة أمر مسلم به عند أهل السنة، من جهة أنها جائزة عقلا، وواقعة شرعا إلا أن مجال الادعاء فيها كان دوما واسعا، مما استدعى من أئمة الطريق تحديد معالمها؛ ليلا تختلط بغيرها من الخوارق، ولتتمحض للولي الكبير كرامة زكية، تعلي جنابه، وتدعم مقامه. ومعالمها واضحة عند أهل العلم بما في ذلك الشيخ السنوسي فهي منضبطة بالشرع، ومتابعة السنة والمخالطة الكثيرة التي تفضح الكذب والتكلف، ففي نص يورده الملالي حول ما إذا كان من الكرامة ما يتم فيه الإخبار عن الغيب، وأن ذلك ربما أفضى إلى اللعب على عوام عقول الخلق، وفتنتهم في دينهم وأموالهم، ولا يتم التمييز في دعوى الغيب تلك بين الولي والكذاب يجيب السنوسي رحمه الله " فإن قلت: السمح في مثل هذا يؤدي إلى تجاسر المخرقين المتشبهين بالأولياء وليسوا منهم على جلب قلوب العوام بمثل هذه المقالة حبا في الشهوات والرياسات. فالجواب: أنا إنما تكلمنا حكم جواز هذه المقالة في حق الولي

الحقيقي في نفس الأمر. وأما معرفة عينه والتمييز بينه وبين المتشبه الكذاب فيحصلان بعد معرفة السنة وشروط الولاية وأحوالها بالمخالطة الشديدة وقرائن الأحوال المحصلة للقطع أو الظن لا يخفى بعد ذلك حال الصادق وحال الكاذب." [53].

وفي مثل هذا ورد نقد الأخضري (982هـ) [54] إسوة بشيخه زروق (899هـ) ومن قبل السنوسي:

وهاجت الطائفة الدجاجلة *** السالكون للطريق الباطلة

وكثرت الدعاوى الكـاذبة *** وصارت البدعة فيهم غالبة

ثم إنه لا خوف على اتساع دعوى المبطلين والمتشبهين لوضوح الأمر بالنسبة لقدرة الناظر على معرفة الولي الحقيقي من جهة اتباع السنة والالتزام بالشرع، ومن جهة ثانية وهي ندور الوصول إلى رتبة الولاية أصلا، وتعليل منع الخوف من العبث برتبة الإخبار عن المغيبات مثلا مندفع عند إمامنا بـ" ندور من يصل من الأولياء إلى هذه الكرامة بل لندور من يتصف بأصل الولاية فضلا عن الاطلاع على هذه الكرامة"[55].

خاتمة:

تبين من خلال هذا البحث أن شخصية كمحمد بن يوسف السنوسي منتمية للتصوف نشأة وتعليما وكثرة تآليف، لم تتسم بالسلبية أو التبريرية في تقويم الخط البياني لحياة الصوفية والتصوف، وأنها مع شدة الإنتماء احتفظت بحيز جيد من مسؤولية نقد للمفاهيم الخاطئة، والسلوكات المنحرفة، والتي كثيرا ما تنسب زورا للتصوف، إضافة إلى تبني واجب تصحيح المفاهيم، وضبط المصطلحات. وكل ذلك حماية لطريق التصوف وأهله. والسنوسي في نقده ودفاعه وإن لم يكن كمعاصره أحمد زروق والأخضري من بعده إلا أن ما قام به يمثل موقفا واضحا يمكن البناء عليه بعد تكميل جوانبه، وضبط منهجه.

ـ قائمة المصادر والمراجع

1. مواهب القدوسية في المناقب السنوسية، محمد الملالي (نسخة مخطوطة خاصة)
2. تفسير السنوسي ضمن المواهب القدوسية، للملالي (مخطوط خاص).
3. المسند، للإمام أحمد بن حنبل (نسخة إلكترونية موافقة للمطبوع)
4. سنن الترمذي بشرح ابن العربي المالكي(دار الكتاب العربي-لبنان- بدون تاريخ)
5. المنهج السديد في شرح كفاية المريد. لمحمد بن يوسف السنوسي.ت: مصطفى مرزوقي(دار الهدى-الجزائر-1994).
6. الطبقات الكبرى، لابن سعد (نسخة إلكترونية مطابقة للمطبوع).
7. موسوعة أعلام المغرب، محمد حجي (دار الغرب الإسلامي- لبنان- ط:01، 1996)
8. تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم محمد الحفناوي(مؤسسة الرسالة - بيروت- ط:02، 1985).
9. البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم المديوني. نشر الدكتور عبد الرحمان طالب شفاه الله تعالى(ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1986).
10. نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير. محمد بن يوسف السنوسي، تحقيق حسن حافظي علوي(كتاب دعوة الحق – عدد خاص- العدد 09، المغرب- 2002م).
11. معجم المعارف والشمائل السنوسية، لصاحب البحث (عمل علمي واسع لا يزال مخطوطا).
12. شرح العقيدة الوسطى، محمد بن يوسف السنوسي. ت:يوسف أحمد(دار الكتب العلمية 2006).
13. الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، رسالة دكتوراه لجمال الدين بوقلي حسن (المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر-1985)
14. معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض (مؤسسة نويهض الثقافية - لبنان- ط:02، 1980).
15. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد مخلوف (دار الفكر، سوريا. بدون تاريخ).
16. تاريخ الجزائر الثقافي، الدكتور بلقاسم سعد الله.(المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1985).
17. منظومة عبد الرحمان الأخضري التصوف (نسخة إلكترونية).

- الحواشي والإحالات:

[1] – معلمة المغرب (2391/7-2396)، مركز www.aljounaid .ma

[2] – التصوف واستقرار المجتمع، منال عبد المنعم السيد جاد الله، رسالة التصوف واستقرار المجتمع، رسالة دكتوراه (نسخة إلكترونية، بدون تاريخ) /130.

[3] – التصوف واستقرار المجتمع، المرجع نفسه. ص: 130

[4] – المواهب القدوسية الباب الأول لوحة: 17.

[5] – معجم المعارف والشمائل السنوسية، بلحاج جلول (عمل خاص مخطوط، قدم للجائزة الدولية لتراث السنوسي، الجزائر، عام 2008م) ص: 37.

[6] – معجم المعارف والشمائل السنوسية، المرجع السابق. ص: 39.

[7] – معجم المعارف والشمائل السنوسية. ص: 39.

[8] – معجم المعارف والشمائل السنوسية. 39.

[9] – معجم المعارف والشمائل السنوسية. ص: 39.

[10] – المواهب القدوسية، للملالي مخطوط خاص. ص: 39.

[11] – معجم المعارف والشمائل السنوسية. ص:220.

[12] – تفسير السنوسي ضمن المواهب القدوسية، الباب الخامس. لوحة 80.

[13] – تفسير السنوسي، المصدر السابق. لوحة 80.

[14] – المنهج السديد شرح عقيدة التوحيد، محمد بن يوسف السنوسي. / 380.

[15] – أخرجه في التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير ج 6/ 42.

[16] – المنهج السديد، المصدر السابق. 380.

[17] – الطبقات الكبرى، لابن سعد 08/1.

[18] – الموسوعة 263.

[19] – المواهب القدوسية للملالي لوحة 59.

[20] – تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم الحفناوي. ج182/1.

[21] – المواهب القدوسية للملالي، المصدر السابق. لوحة 75.

[22] – البستان لابن مريم، المصدر السابق. ص: 33.

[23] – المواهب القدوسية للملالي، المصدر السابق. لوحة 66.

[24] – نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير، لمحمد بن يوسف السنوسي. ص: 385.

[25] – البستان لابن مريم، المصدر السابق. ص: 08.

[26] – البستان لابن مريم. ص: 08.

[27] – البستان لابن مريم. ص: 08.

[28] – البستان لابن مريم. ص: 08.

[29] – البستان لابن مريم. ص: 08.

[30] – البستان لابن مريم. ص: 08.

[31] – البستان لابن مريم. ص: 08.

[32] – محمد بن محمد المقري التلمساني، أبو عبد الله: من كبار فقهاء وقضاة المالكية ولد ونشأ بتلمسان، وتعلم بها وبتونس والمغرب، ورحل إلى المشرق وعاد الى بلده، ثم دخل المغرب وعبر الى الأندلس، وانتهت به الرحلة إلى غرناطة. توفي (759هـ/ 1359م). معجم أعلام الجزائر 312.

[33] – نصرة الفقير، المصدر السابق. ص: 20.

[34] – أبو مدين شعيب البجائي: من فضلاء وأعلام الصوفية، ومن حفاظ سنن الترمذي وكان يقوم عليه وكانت ترد إليه الفتاوى في مذهب مالك، رحل للمشرق فأخذ عن العلماء واستفاد من الزهاد والأولياء توفى سنة (572 هـ/1176 م). شجرة النور الزكية في طبقات المالكية 1/ 236.

[35] – نصرة الفقير، المصدر السابق. ص: 20.

[36] – نصرة الفقير، المصدر السابق. ص: 20.

[37] – البستان لابن مريم، المصدر السابق. ص: 32.

[38] – المواهب القدوسية: لوحة 60.

[39] – المواهب القدوسية، للملالي. لوحة 52.

[40] – راجع الطرق الصوفية في الجزائر، صلاح مؤيد العقبي (مكتبة الشرق، باريس، 2002م) 56.

[41] – شرح العقيدة الوسطى، محمد بن يوسف السنوسي. /367.

[42] – الإمام ابن يوسف السنوسي لبوقلي حسن. /372.

[43] – رسالة أبي الحسن الصغير المكناسي (مخطوط خاص) لوحة 03.

[44] – رسالة المكناسي ضمن معجم المعارف والشمائل السنوسية / الملحق: 565.

[45] – أخرجه الترمذي، باب ما جاء في الأخذ بالسنة وترك البدعة :(5/43) برقم : 2676.

[46] – رسالة المكناسي ضمن معجم المعارف والشمائل السنوسية / الملحق: 565.

[47] – مسند الإمام أحمد. ج 4/126-127.

[48] – راجع ميزان الاعتدال للذهبي. ص/ 1511.

[49] – نصرة الفقير ضمن معجم المعارف والشمائل السنوسية 595.

[50] – نصرة الفقير ضمن معجم المعارف والشمائل السنوسية 595.

[51] – مسند الإمام أحمد بن حنبل. ص: 1/201.

[52] – نصرة الفقير ضمن معجم المعارف والشمائل السنوسية 595.

[53] – المواهب القدوسية للملالي. لوحة 51-60.

[54] – ترجمة الأخضري: عبد الرحمان الأخضري فقيه وبياني ومتصوف جزائري من مواليد 918هـ، توفي 982م، وقيل: 953هـ. له مؤلفات في الفرائض والبلاغة والمنطق صارت مقررات علمية بالمعاهد العلمية شرقا وغربا. معجم أعلام الجزائر، ص: 199.

[55] – المواهب القدوسية للملالي. لوحة 60.

Muhammad ibn Yusuf al-Sanussi (832 -895 / 1428-1490)

And its opinion on Tasawwuf and El sufismo in his time

Djelloul Belhadj

Abou Bekr Belkaid University- Tlemcen

Djelloulogbi46@hotmail.com

Abstract

Muhammad ibn Yusuf Al-Sanussi lived in the land of Tlemcen in western Algeria, in the environment of Salah and Zuhad. He grew up in a scientific atmosphere between the 9th century AD. He witnessed critical periods of political unrest and massive social transformations, and the development of Sufism in his time in terms of ideas and personalities, A critical call for criticism of the attack on the part of the adversaries also calls for criticism of the defense and correction by the supporters. Al-Sanussi, like other cultural figures on his day, is required to play his role as a personality belonging to Sufism, which is presented to the researcher documentation, analysis.

Keywords:
Al-Sanussi; Tlemcen; Taṣawwuf; El sufismo; criticism; El sufismo.